الفصل الأول

الشظية

كانت الساعة تقترب من الرابعة عصراً عندما سمع د. كريم عبد الله صوت الزجاج يتكسر.

لم يكن صوتاً عالياً. مجرد طقطقة خفيفة، كأنها شيء صغير جداً انفجر داخل غرفة التجارب رقم 3 في معهد الوادي الجديد للأبحاث النووية. لكنه عرف فوراً أن شيئاً ما قد حدث خطأ.

كان يقف أمام الطاولة المغطاة بالرصاص، يرتدي بدلته الواقية البيضاء، والقناع الشفاف يغطي وجهه. أمامه، داخل الحاوية الزجاجية السميكة، كانت عينة البلوتونيوم-239 تستقر بهدوء داخل أنبوب معدني صغير. كانت التجربة روتينية: قياس معدل الإشعاع المتبقي بعد عملية تنقية جديدة. لا شيء يستحق القلق. أو هكذا ظن.

ثم جاءت الطقطقة.

شعر بحرارة خفيفة على ظهر يده اليمنى، فوق المعصم مباشرة. كأن إبرة ساخنة لمسته لجزء من الثانية ثم اختفت. رفع يده غريزياً، ونظر إليها من خلف القفاز السميك. لم يرَ شيئاً. لا دم، لا جرح ظاهر. فقط بقعة حمراء صغيرة جداً، بحجم رأس الدبوس، بدأت تتسع ببطء تحت الجلد.

«كريم؟» جاء صوت زميله من الغرفة المجاورة عبر السماعات. «كل شيء تمام؟»

لم يجب. كان ينظر إلى يده، والحرارة تزداد قليلاً، كأنها جمرة صغيرة تدفن نفسها أعمق فأعمق.

بعد ثلاث ساعات، كان يجلس في غرفة الطوارئ بمستشفى الجامعة، والقميص الأبيض مفتوح على صدره، وأجهزة المراقبة تُصدر أصواتاً منتظمة حوله. زوجته سعاد تجلس على الكرسي بجانب السرير، تمسك حقيبتها بكلتا يديها كأنما تخشى أن تفلت منها. ابنتها مريم، ذات الستة عشر عاماً، تقف عند النافذة وتنظر إلى الشارع دون أن ترى شيئاً.

دخل الطبيب الشاب يحمل ملفاً سميكاً.

«الدكتور كريم... النتائج الأولية تؤكد وجود جسم غريب دقيق جداً تحت الجلد، فوق العصب البصري تقريباً من جهة اليمين. الإشعاع...» توقف قليلاً، ثم أكمل بصوت أكثر هدوءاً: «الإشعاع أعلى مما يجب أن يكون في هذه المرحلة.»

كريم أغمض عينيه. كان يعرف. منذ اللحظة التي شعر فيها بتلك الحرارة الصغيرة، عرف.

سعاد رفعت رأسها فجأة.

«ماذا يعني هذا؟ هل يمكن استخراجه؟»

الطبيب نظر إليها، ثم إلى كريم، ثم إلى الأرض.

«الأمر... معقد.»

في تلك الليلة، بعد أن نامت مريم أخيراً على الكرسي في الزاوية، جلست سعاد تمسك يد زوجها. كانت أصابعها باردة.

«أتذكر أول مرة أخذتني إلى المعهد؟» همست. «كنت فخوراً جداً. قلت لي إنكم ستغيرون العالم.»

كريم حاول أن يبتسم، لكن الابتسامة لم تكتمل.

«ربما غيرناه... بطريقة لم نكن نريدها.»

خارج النافذة، كانت أضواء المدينة تبدو بعيدة وباهتة. وفي مكان ما، في غرفة عمليات لم تُستخدم بعد، كان فريق من الأطباء ينتظر قراراً لم يكن أحد يجرؤ على اتخاذه بعد.

أما تحت جلد كريم، فوق العصب البصري مباشرة، فكانت شظية صغيرة جداً من البلوتونيوم-239 تواصل إشعاعها الهادئ... بانتظار من يستطيع الوصول إليها.

الفصل الثاني

التشخيص المستحيل

في صباح اليوم التالي، نُقل د. كريم عبد الله إلى الجناح الخاص في مستشفى جامعة الوادي الجديد تحت حراسة أمنية مشددة. لم يكن أحد يصرح بسبب النقل، لكن الجميع في المعهد كانوا يعرفون. الشائعات أسرع من الإشعاع.

دخل كبير الجراحين د. سامح النجار الغرفة في الساعة التاسعة صباحاً تماماً. كان رجلاً في أوائل الستين، طويل القامة، شعره الرمادي ممشطاً بعناية، وعيناه حادتان كأنهما اعتادتا النظر إلى أشياء لا يراها الآخرون. خلفه سار ثلاثة أطباء أصغر سناً، وطالبة امتياز تدعى نورا حامد، تمسك ملفاً إلكترونياً وتحاول أن تخفي ارتباكها.

جلس سامح على الكرسي بجانب السرير دون أن يخلع نظارته الطبية.

«كريم... أعرفك منذ خمسة عشر عاماً. لن أجامل.»

كريم أدار رأسه بصعوبة. كانت عينه اليمنى قد بدأت تحمر قليلاً، والجلد حولها متورماً تورمًا خفيفاً لا يكاد يُرى.

«قل.»

سامح فتح الملف على شاشته الصغيرة.

«الشظية مستقرة فوق العصب البصري الأيمن، على بعد مليمترين تقريباً من الشبكية. حجمها أقل من نصف مليمتر. لكنها تُصدر إشعاعاً مستمراً. لو تركناها...» توقف لحظة، ثم أكمل بصوت أكثر انخفاضاً: «خلال أسبوعين كحد أقصى ستفقد البصر في هذه العين. خلال شهر قد يصل الضرر إلى المخ.»

سعاد التي كانت واقفة عند النافذة أدارت وجهها بسرعة.

«إذن استخرجوها.»

سامح نظر إليها ثم عاد إلى كريم.

«لو كانت في أي مكان آخر في الجسم... ربما. لكن هنا؟ أي تدخل جراحي تقليدي يعني احتمال فقدان العين بالكامل، وربما أكثر. المبضع لا يصل إلى هذا العمق بهذه الدقة دون أن يدمر ما حوله.»

نورا تقدمت خطوة دون أن تشعر.

«وماذا عن الروبوتات الجراحية الدقيقة؟»

سامح هز رأسه.

«جربناها في حالات مشابهة منذ ثلاث سنوات. الروبوت لا يستطيع التمييز بين الأنسجة المتضررة بالإشعاع والأنسجة السليمة بنفس كفاءة الجراح البشري... والجراح البشري لا يستطيع العمل في مساحة أصغر من رأس الدبوس.»

ساد صمت ثقيل.

كريم كان ينظر إلى السقف الأبيض.

«إذن ما الحل؟»

سامح أغلق الملف ببطء.

«هناك حل واحد فقط.»

رفع عينيه ونظر مباشرة إلى كريم.

«كائنات فيجا.»

سعاد التفتت بعنف.

«هؤلاء... المخلوقات؟»

«نعم. سكان كوكب فيجا. حجم الواحد منهم يساوي حجم كرية دم حمراء تقريباً. منذ معاهدة التعاون الطبي عام ١٩٩٧ وهم يجرون عمليات داخل أجسامنا في الحالات التي يستحيل فيها التدخل التقليدي.»

مريم التي كانت صامتة طوال الوقت اقتربت من سرير أبيها.

«هل هم... بشر؟»

سامح ابتسم ابتسامة صغيرة حزينة.

«لا. لكنهم أذكياء. ومهرة. وقد أنقذوا أرواحاً كثيرة.»

كريم أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما.

«وهل ينجح الأمر دائماً؟»

سامح لم يجب فوراً. نظر إلى نورا، ثم عاد إلى المريض.

«ليس دائماً. لكن في حالتك... هو الأمل الوحيد.»

خارج الغرفة، في الممر الطويل، كان صوت خطوات متسارعة يقترب. أحد المساعدين فتح الباب وقال بصوت خافت:

«دكتور سامح... وفد من وزارة الصحة وصلت. يطلبون اجتماعاً فورياً.»

سامح نهض ببطء، ووضع يده للحظة على كتف كريم.

«سأدعك تفكر. لكن الوقت ليس في صالحنا.»

ثم خرج، تاركاً وراءه عائلة كاملة تحدق في الفراغ، وشظية صغيرة جداً تواصل إشعاعها الهادئ تحت الجلد... بانتظار قرار لم يكن أحد يجرؤ على اتخاذه بسهولة.

الفصل الثالث

حلفاء من حجم الدم

في قاعة الاجتماعات بالطابق السابع من مستشفى جامعة الوادي الجديد، كانت الشاشات الكبيرة تعرض صوراً قديمة بالأبيض والأسود إلى جانب لقطات حديثة عالية الدقة. جلس د. سامح النجار في مقدمة القاعة، وإلى جانبه ممثلون عن وزارة الصحة وجهاز المخابرات العلمية. خلفهم، على الصفوف الخلفية، جلست نورا حامد تدون ملاحظات بسرعة، بينما كان كريم راقداً في غرفته بالطابق الثالث، لا يعلم أن مستقبله يُناقش بهذه الطريقة.

بدأ العرض بصورة ملتقطة من تلسكوب قديم عام ١٩٩٦.

«في ذلك العام»، قال سامح بصوت هادئ، «رصد مرصد أسوان إشارة راديوية غير طبيعية قادمة من نظام نجمي يبعد عنا حوالي خمسة وعشرين سنة ضوئية. كوكب فيجا-٤. لم تكن الإشارة عشوائية. كانت... منظمة.»

تغيرت الصورة إلى مشاهد من أول اتصال مرئي عام ١٩٩٧. ظهرت كائنات صغيرة جداً، شبه شفافة، ذات أطراف رفيعة وعيون كبيرة سوداء، تتحرك داخل غرف زجاجية مخصصة. حجم الواحد منها لا يتجاوز حجم كرية دم حمراء بشرية.

«اكتشفنا بعد شهور من المفاوضات عبر الإشارات أن حضارتهم متقدمة في الطب الميكروسكوبي منذ آلاف السنين. أجسامهم تتحمل بيئات قاسية، وهم قادرون على العيش والعمل داخل أنسجة كائنات أكبر منهم بكثير... بما في ذلك نحن.»

صوت أحد ممثلي الوزارة قاطعه:

«ووقعنا المعاهدة.»

«نعم. معاهدة التعاون الطبي لعام ١٩٩٧. بموجبها يرسلون فرقاً متخصصة في الحالات المستعصية، مقابل تقنياتنا في الطاقة والمواد. منذ ذلك الحين أجروا مئة وسبعاً وأربعين عملية داخل أجسام بشرية. نجحت منها مئة واثنتان وثلاثون.»

ظهرت على الشاشة صور لعمليات سابقة: كائنات فيجا تتحرك داخل شرايين، تلتقط جلطات دقيقة، تصلح تمزقات في الأوعية الدموية الدقيقة، وتزيل أجساماً غريبة لم يكن المبضع البشري قادراً على الوصول إليها.

نورا رفعت يدها مترددة.

«وماذا عن الحالات الخمس عشرة التي فشلت؟»

سامح نظر إليها للحظة، ثم أجاب بصراحة:

«بعضها بسبب تأخر التدخل. بعضها بسبب رفض جهاز المناعة البشري للمخلوق الغريب. وفي حالتين... لم يعد الكائن الفيجاوي حياً.»

ساد صمت قصير.

ممثل المخابرات العلمية تقدم خطوة.

«المشكلة الآن ليست طبية فقط. هناك أصوات في البرلمان وفي الإعلام ترفض الاعتماد على كائنات خارجية. يقولون إننا نسلم أجسادنا لأجانب لا نعرف حقيقة نواياهم. وإن كل عملية ناجحة تجعلنا أكثر اعتماداً عليهم.»

سامح أغمض عينيه لحظة.

«وأنا أفهم مخاوفهم. لكن الشظية داخل عين كريم لا تنتظر قرارات سياسية. كل ساعة تمر تزيد الضرر.»

على إحدى الشاشات الجانبية ظهرت صورة حديثة لفريق فيجا المتخصص في إزالة الأجسام المشعة. في المقدمة كان يقف كائن أصغر قليلاً من الباقين، ذو ملامح تبدو أكثر حدة وتركيزاً.

تحت الصورة كُتب اسم واحد:

مالو.

سامح أشار إليه.

«هذا أفضل من لديهم في التعامل مع المواد المشعة. طلبناه خصيصاً.»

نورا حدقت في الصورة طويلاً. لم تكن تعرف بعد أن هذا الكائن الصغير جداً، الذي لا يكاد يُرى بالعين المجردة، سيكون قريباً داخل جسد رجل يحتضر ببطء... وأن مصير عين كريم، وربما حياته، سيعتمد على مهارة مخلوق يأتي من عالم آخر بالكامل.

في الغرفة المجاورة، كانت سعاد تمسك يد زوجها في صمت، بينما كانت مريم تحدق من النافذة إلى السماء الصافية، تتساءل إن كانت هناك فعلاً كائنات صغيرة جداً تنظر إلينا من مكان ما بين النجوم... وتنتظر الإشارة لتأتي.

الفصل الرابع

د. مالو

على كوكب فيجا-٤، حيث السماء دائمة الشفق والهواء كثيف بما يكفي ليحمل الأصوات مسافات بعيدة، كان مالو يقف أمام جدار الذاكرة.

الجدار لم يكن حجرياً ولا معدنياً. كان طبقة رقيقة من سائل متبلور يعرض مشاهد من الماضي كلما لمسه أحدهم. مالو مدّ أحد أطرافه الرفيعة ولمس السطح. ظهرت صورة صديقه القديم «رين».

رين الذي لم يعد موجوداً.

منذ ثلاث دورات نجمية، دخل رين جسد إنسان مصاب بجلطة دقيقة في جذع الدماغ. كانت العملية ناجحة في بدايتها. ثم حدث ما لم يكن في الحسبان: جهاز المناعة البشري انقضّ عليه بشكل مفاجئ وعنيف. لم يتمكن فريق الإنقاذ من سحبه في الوقت المناسب. عادوا بجسده فقط... أو ما تبقى منه.

مالو أبعد طرفه عن الجدار. الصورة اختفت.

في غرفته الصغيرة المستديرة، كانت أدواته مرتبة بعناية فائقة: خطاطيف نانوية، أسلاك مرنة أرق من خيوط الضوء، وأسطوانات دقيقة تحتوي على مواد مضادة للإشعاع. كان قد أعدّها بنفسه خلال الأشهر الماضية، بعد أن علم أنه قد يُستدعى قريباً.

جاء الصوت من فتحة الاتصال:

«مالو. الطلب وصل من الأرض. حالة بلوتونيوم-٢٣٩ فوق العصب البصري. يطلبونك تحديداً.»

مالو لم يجب فوراً. نظر إلى أدواته، ثم إلى الجدار الذي كان يعرض منذ لحظات وجه رين.

«من المريض؟»

«عالم نووي. اسمه كريم عبد الله. الوضع حرج. الإشعاع بدأ يؤثر على الأنسجة المحيطة.»

مالو أغمض عينيه الكبيرتين السوداوين. كان يعرف ما يعنيه البلوتونيوم. المادة التي تقتل ببطء وبصمت، والتي لا تسامح أي خطأ في التعامل معها.

«هل وافقوا على الشروط؟»

«نعم. الحماية الكاملة، وفريق دعم جاهز، وحق الانسحاب إذا تجاوزت الجرعة الحد المسموح.»

صمت طويل.

ثم قال مالو بصوت منخفض:

«سأذهب.»

لكنه لم يكن متأكداً من أن القرار نابع من الواجب فقط. كان هناك شيء آخر... شعور بالدَّين القديم تجاه رين، ورغبة صامتة في إثبات أن ما حدث له لن يتكرر.

في مركز التدريب، خضع مالو للفحوصات الأخيرة. جسده الصغير تحمل ضغطاً هائلاً داخل محاكاة لمجرى دم بشري، وتعرض لجرعات محسوبة من الإشعاع، وتدرب على استخدام الخطاطيف داخل أنسجة حية مصطنعة. كان الأفضل بينهم جميعاً في التعامل مع المواد المشعة. الجميع كانوا يعرفون ذلك. وهو أيضاً كان يعرف الثمن.

قبل ساعات من مغادرته، وقف أمام جدار الذاكرة مرة أخرى. لم يلمس صورة رين هذه المرة. اكتفى بالنظر إليها من بعيد.

«سأحاول ألا أرتكب الخطأ نفسه»، همس.

ثم أدار ظهره وخرج.

في مركبة النقل الصغيرة المتجهة إلى محطة الإقلاع، كان مالو يحدق من النافذة الشفافة إلى سطح كوكبه. المدن الفيجاوية تبدو من الأعلى كشبكة معقدة من الأنوار الخافتة. تساءل للحظة إن كان سيعود ليراها مجدداً.

ثم أبعد الفكرة عن ذهنه.

كان هناك عين بشرية في خطر... ورجل ينتظر من ي نقذه من شظية لا تُرى بالعين المجردة.

ومالو، الذي لا يتجاوز حجمه حجم كرية دم، كان في طريقه ليدخل عالماً أكبر منه بملايين المرات.

الفصل الخامس

الغرفة والتحضيرات

كانت غرفة العمليات رقم 7 في الطابق السفلي من مستشفى جامعة الوادي الجديد مختلفة عن أي غرفة عمليات أخرى.

الجدران مبطنة بطبقات عازلة للإشعاع، والهواء يُرشح ثلاث مرات قبل أن يدخل، والطاولات المحيطة بالسرير الرئيسي مليئة بأجهزة لم يعتد معظم الجراحين رؤيتها. في وسط الغرفة، فوق سرير د. كريم مباشرة، كانت تعلق منصة شفافة صغيرة جداً... صغيرة لدرجة أن العين البشرية تحتاج إلى عدسة مكبرة لترى تفاصيلها بوضوح.

دخل د. سامح النجار الغرفة في الساعة السادسة مساءً، مرتدياً الزي الأخضر المعقم. خلفه سارت نورا حامد تحمل حافظة إلكترونية، وعيناها تتسعان كلما نظرت إلى التجهيزات.

«هل وصلوا؟» سأل سامح أحد الفنيين.

«الآن يا دكتور. في غرفة العزل المجاورة.»

بعد دقائق، فُتح الباب الجانبي بهدوء. دخل ثلاثة فنيين بشريين يدفعون حاوية زجاجية مستطيلة مغلقة بإحكام. داخل الحاوية، على منصة بيضاء ناصعة، وقف أربعة كائنات صغيرة شبه شفافة. كانوا يتحركون ببطء وحذر، كأنهم يختبرون الجاذبية الأرضية من جديد.

نورا اقتربت رغم نفسها. رأتهم للمرة الأولى بهذا القرب. أجسامهم النحيلة، أطرافهم الرفيعة، وعيونهم السوداء الكبيرة التي تعكس الضوء بطريقة غريبة. أحدهم كان يقف في المقدمة، أكثر ثباتاً من الباقين.

«هذا مالو»، قال الفني بهدوء. «القائد.»

سامح اقترب من الحاوية وانحنى قليلاً حتى صار وجهه موازياً للمنصة.

«مرحباً بك مجدداً في أرضنا، مالو. أنا سامح النجار.»

صوت صغير جداً، مُترجم فورياً عبر سماعة دقيقة مثبتة على جانب الحاوية، جاء واضحاً:

«أعرفك. قرأت ملفاتك. أنت دقيق.»

نورا ابتسمت رغم التوتر. كان صوت مالو المترجم هادئاً، خالياً من أي نبرة استعلاء أو خوف.

أحد الأطباء المساعدين، د. هشام، وقف في الخلف ذراعيه متقاطعتين.

«هل نحن متأكدون من هذا؟» همس لسامح. «ندخل كائناً غريباً داخل جسد إنسان؟ ماذا لو حدث خطأ؟»

سامح لم يلتفت إليه.

«الخطأ الوحيد هو أن نترك كريم يفقد عينه ثم حياته ونحن نملك حلاً.»

مالو تحرك قليلاً داخل الحاوية، ونظر مباشرة إلى نورا التي كانت لا تزال تحدق فيه.

«أنتِ الطالبة»، قال. «نورا حامد. راقبتِ ثلاث عمليات سابقة من بعيد.»

نورا شعرت بحرارة في وجهها.

«نعم... كنت أراقب.»

«هل تخافين منا؟»

السؤال جاء مباشراً لدرجة أنها ترددت لحظة.

«أخاف على المريض»، أجابت بصدق. «وعليكم أيضاً.»

مالو أمال رأسه الصغير قليلاً، كأنما يقيّم إجابتها.

«خوف معقول.»

ثم التفت إلى سامح.

«الجهاز المناعي للمريض؟»

«مستقر حالياً. أعطيناه مثبطات خفيفة. لن يهاجمكم بقوة في الساعات الأولى.»

«والإشعاع؟»

«يزداد ببطء. كلما تأخرنا، صار العمل أصعب.»

مالو صمت لحظة، ثم قال:

«حسناً. نبدأ التجهيز.»

أثناء الساعات التالية، تحولت الغرفة إلى خليط غريب من الطب البشري والفيجاوي. الفنيون يضبطون درجة حرارة المنصة، والأطباء يراجعون صور الأشعة المقطعية للمرة العاشرة، ونورا تنتقل بين الشاشات تحمل رسائل وتعليمات. مالو وفريقه يفحصون أدواتهم الدقيقة واحداً واحداً: الخطاطيف، الأسلاك، الأسطوانات المضادة للإشعاع.

في لحظة هدوء نادرة، اقتربت نورا من الحاوية مرة أخرى. مالو كان يجلس القرفصاء على المنصة، يفحص طرف أحد الخطاطيف.

«هل... هل أنت خائف؟» سألته بصوت خافت.

مالو رفع عينيه السوداوين نحوها.

«الخوف موجود دائماً. لكنه لا يقود.»

ثم أضاف بعد لحظة:

«رين كان يقول الشيء نفسه.»

نورا لم تفهم الإشارة، لكنها شعرت أن هناك قصة خلف هذا الاسم. لم تسأل.

في السابعة والنصف مساءً، أُعلن أن كل شيء جاهز. كريم كان قد نُوِّم نوماً عميقاً، وجهاز المناعة تحت السيطرة، والمنصة الشفافة مُثبتة فوق موضع الشظية تماماً.

سامح وقف في وسط الغرفة ونظر إلى الجميع.

«من هذه اللحظة، لا أحد يدخل أو يخرج دون إذن. أي خطأ بسيط قد يقتل المريض... أو يقتلهم.»

نظر إلى الحاوية حيث يقف مالو وفريقه.

«حظاً موفقاً.»

مالو لم يرد بكلمات. اكتفى بإيماءة صغيرة برأسه، ثم التفت إلى أدواته للمرة الأخيرة.

خارج الغرفة، في الممر، كانت سعاد تجلس على كرسي بلاستيكي وتحدق في الباب المغلق. مريم تمسك يدها بقوة. كلاهما يعرف أن ما سيحدث خلف هذا الباب ليس عملية جراحية عادية.

إنه عبور من عالم إلى عالم... داخل جسد رجل واحد.

الفصل السادس

الليلة السابقة

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، والمستشفى يغرق في صمت ثقيل لا يكسره إلا صوت الأجهزة البعيد وأقدام الممرضات المتباعدة في الممرات.

في غرفة الانتظار بالطابق الثالث، جلست سعاد على الكرسي نفسه منذ ست ساعات. لم تعد تشعر بظهرها ولا بساقيها. كانت تحدق في الباب المؤدي إلى جناح زوجها كأنها تستطيع أن ترى من خلاله. إلى جانبها، نامت مريم أخيراً، رأسها مائل على كتف أمها، وشعرها الأسود يغطي نصف وجهها.

سعاد لم تنم. كانت تتذكر ليلة زواجهما قبل اثنين وعشرين عاماً، وكيف أقسم كريم أنه لن يتركها وحدها أبداً. الآن هو راقد على بعد أمتار قليلة، وشظية صغيرة جداً تقرر إن كان سيفي بقسمه أم لا.

مدّت يدها وأصلحت غطاء مريم برفق. ثم همست لنفسها:

«فقط ارجع... حتى لو بعين واحدة.»

في غرفة العزل بالطابق السفلي، كان مالو وحيداً داخل الحاوية الشفافة.

الفنيون انصرفوا منذ ساعة، وفريقه الثلاثة ناموا في زوايا المنصة مستخدمين تقنية السبات القصير التي يتقنها أهل فيجا. أما هو فلم يستطع.

كان يجلس القرفصاء أمام الجدار الداخلي للحاوية، ينظر إلى انعكاسه الباهت. تذكر صوت رين للمرة العاشرة هذا اليوم:

«لا تدخل إذا كان الإشعاع أعلى من الحد. لا تكن بطلاً.»

لكن الحد هنا تجاوزه بالفعل. والبطل الوحيد المتاح... هو هو.

مدّ طرفه ولمس أداة الخطاف الرئيسية. كانت باردة وملساء. تساءل إن كانت هذه الليلة ستكون آخر ليلة يراها على سطح أي كوكب، أم أنها مجرد ليلة أخرى في سلسلة طويلة من الليالي التي ينجو منها بصعوبة.

همس بصوت لا يسمعه أحد:

«سأحاول.»

ثم أغلق عينيه الكبيرتين وحاول أن ي النوم.

في مكتب الإدارة بالطابق السابع، كان د. سامح النجار يقف أمام النافذة العريضة ينظر إلى أضواء المدينة. خلفه، على الشاشة، كانت تتوالى رسائل عاجلة من الوزارة ومن جهات أمنية لم يذكر أسماءها.

أحد المستشارين قال بصوت منخفض:

«الإعلام عرف. بحلول الصباح ستكون القصة على كل الشاشات. إذا فشلت العملية...»

سامح قاطعه دون أن يلتفت:

«إذا فشلت العملية سيفقد رجل عينه وربما حياته. هذا أهم من الشاشات.»

«أنت تُدخل كائناً فضائياً داخل جسد مواطن مصري. هذا ليس قراراً طبياً فقط.»

سامح أدار وجهه أخيراً. كانت عيناه محمرتين من الإرهاق، لكن صوته جاء ثابتاً:

«القرار الطبي اتُّخذ منذ ساعات. والحقن سيتم عند الساعة السادسة صباحاً.»

صمت المستشار لحظة، ثم قال:

«هل أنت مستعد لتحمّل النتيجة؟»

سامح نظر إلى ساعته، ثم إلى الباب.

«أنا مستعد منذ اللحظة التي رأيت فيها صورة الشظية.»

في غرفة كريم، كانت الأجهزة تراقب كل نبضة وكل تغير طفيف في مستوى الإشعاع. المريض غارق في نوم عميق بفعل الأدوية. لم يكن يعلم أن أربع كائنات صغيرة جداً تستعد في هذه اللحظة لدخوله، وأن رجلاً في الطابق السابع يوقع أوراقاً قد تُنهي مسيرته المهنية، وأن زوجته في غرفة الانتظار تهمس أمنياتها إلى الظلام.

في الساعة الثالثة فجراً، أُرسلت الرسالة النهائية إلى كل الأطراف:

الحقن في السادسة صباحاً. لا تأخير.

ومالو، الذي كان لا يزال مستيقظاً داخل حاويته، تلقى الإشارة الضوئية الصغيرة على جدار منصته.

رفع رأسه، ونظر إلى الظلام خارج الزجاج.

بعد ثلاث ساعات سيصبح داخل إنسان.

وبعد ثلاث ساعات... لن يكون هناك رجوع سهل.

الفصل السابع

الإبرة العملاقة

في الساعة السادسة صباحاً تماماً، أُطفئت الأنوار الجانبية في غرفة العمليات رقم 7، ولم يبقَ إلا الضوء الأبيض البارد المتساقط من السقف فوق سرير د. كريم.

كان الجميع يرتدون الأقنعة والنظارات الواقية. د. سامح يقف عند رأس السرير، نورا إلى يساره تمسك لوحة التحكم بأصابع مرتجفة قليلاً، والفنيون يراقبون الشاشات التي تعرض الآن صورة مكبرة جداً لجلد المريض فوق موضع الشظية.

الحاوية الشفافة رُفعت بعناية ووُضعت على المنصة المخصصة. مالو وفريقه الثلاثة كانوا يقفون في صف واحد، أدواتهم مثبتة على ظهورهم بأحزمة دقيقة.

سامح نظر إلى مالو عبر العدسة المكبرة المثبتة على الحاوية.

«هل أنتم جاهزون؟»

الصوت المترجم جاء هادئاً:

«جاهزون.»

أخذ الفني الإبرة الخاصة. لم تكن إبرة عادية. كانت مصممة خصيصاً لهذه العمليات: رفيعة جداً، مجوفة، مطلية بمادة تمنع تخثر الدم فوراً، وطولها محسوبة بدقة لتصل إلى مجرى الدم دون إتلاف الأنسجة المحيطة.

نورا ابتلعت ريقها وهي ترى الإبرة تقترب من جلد كريم. بدت من زاويتها كأداة طبية مألوفة. لكنها تعرف أن داخلها عالماً كاملاً.

بالنسبة لمالو، كانت الإبرة شيئاً آخر تماماً.

عندما فُتحت البوابة الأمامية للحاوية واتصلت بقاعدة الإبرة، رأى أمامه نفقاً هائلاً لامعاً يمتد إلى ما لا نهاية. جدرانه ملساء كأنها معدنية، والضوء ينعكس عليها بطريقة تجعل المسافة تبدو أكبر مما هي عليه.

«تقدم»، قال لفريقه.

دخل أولاً. خطوته الأولى داخل الإبرة جعلته يشعر بضيق مفاجئ. الهواء هنا مختلف، والجاذبية تُعدل اصطناعياً لتناسب أجسامهم. خلفه تبعه الثلاثة بصمت.

كلما تقدموا، بدا النفق أطول. مالو رفع رأسه ونظر إلى الأمام. في نهاية الإبرة البعيدة كان هناك ضوء وردي خافت... دم الإنسان.

«نحن نقترب»، همس.

ثم جاءت اللحظة.

الفني على السطح ضغط المكبس ببطء شديد ومحسوب. بالنسبة للبشر في الغرفة، بدت العملية هادئة: الإبرة تلامس الجلد، ثم تغوص مليمترات قليلة، ثم يتوقف كل شيء لحظة.

أما مالو وفريقه فقد شعروا فجأة بجذب هائل إلى الأمام، كأن موجة جاذبية سحبتهم. النفق اهتز، والجدران اللساء انسابت من حولهم بسرعة جنونية. ثم... خرجوا.

سقطوا داخل تيار أحمر دافئ وعنيف.

مالو دار حول نفسه مرتين قبل أن يتمكن من تثبيت نفسه. الدم كان يمر من حوله كالنهر الهادر. كريات دم حمراء ضخمة تتدحرج وتتصادم، أكبر من جسده بعدة مرات، تدفعها ضربات قلب منتظمة وقوية.

«تمسكوا!» صرخ لفريقه.

أحدهم كاد ينجرف بعيداً، لكن زميلاً آخر أمسك به في اللحظة الأخيرة. مالو أخرج أداة التثبيت الصغيرة وأطلق سلكاً رفيعاً التصق بجدار الوعاء الدموي. ثم جذب الآخرين واحداً واحداً حتى استقروا جميعاً في مكان آمن نسبياً على الجدار الداخلي.

رفع رأسه ونظر حوله.

كان داخل إنسان حي.

التيار يمر فوقه وتحته، والحرارة أعلى مما توقع، والصوت... صوت النبض كان يدوي في كل مكان كطبول بعيدة وعميقة.

على السطح، في غرفة العمليات، رفع الفني رأسه وقال:

«دخلوا. الإشارة مستقرة.»

سامح أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما.

«ابدأوا التتبع.»

نورا كانت تحدق في الشاشة التي تعرض الآن إشارة مالو كنقطة صغيرة جداً تتحرك داخل خريطة جسم كريم. شعرت بقلبها ينبض بسرعة غريبة.

في مكان ما تحت جلد الرجل النائم، كان كائن بحجم كرية دم يلتقط أنفاسه الأولى داخل نهر من الدم... ويبدأ رحلته نحو العين.

الفصل الثامن

التيار

التيار لم يكن نهراً.

كان محيطاً هائلاً يتحرك بضربات منتظمة وعنيفة، وكل ضربة تعادل عاصفة كاملة بالنسبة لمالو ومن معه.

تشبث بالسلك الذي ثبّته على الجدار الداخلي للوريد، وشعر بجسده الصغير يهتز مع كل نبضة. الدم كان دافئاً أكثر مما توقعت المحاكاة، وسميكاً بطريقة تجعل الحركة فيه أشبه بالسباحة داخل سائل لزج ثقيل. كريات الدم الحمراء تمر من حوله كبالونات عملاقة لينة، تصطدم أحياناً بجسده ثم تنزلق مبتعدة دون أن تكترث بوجوده.

«تقرير»، قال بصوت منخفض عبر جهاز الاتصال الدقيق.

أحد رفاقه، «سيل»، أجاب وهو يمسك بحافة نتوء صغير على الجدار:

«السرعة أعلى بنسبة اثني عشر في المئة من المتوقع. الحرارة أيضاً.»

مالو نظر إلى الأمام. الوريد يمتد أمامه كالنفق اللانهائي، جدرانه الداخلية ليست ملساء تماماً. هناك نتوءات دقيقة، وتشققات صغيرة، وأماكن يتغير فيها لون النسيج. كل شيء هنا حي. كل شيء يتنفس ويتفاعل.

رفع رأسه. بعيداً فوقه، عبر طبقات الدم، كان يستطيع أن يرى انعكاسات باهتة لما يشبه الأضواء... ربما أجهزة المراقبة من الخارج، أو مجرد وهم بصري بسبب كثافة السائل.

ثم شعر بها.

وخزة خفيفة في طرفه الأيمن. كأنها إبرة ساخنة لمسته من بعيد. لم تكن قوية، لكنها كانت مختلفة عن كل شيء حوله. مالو عرفها فوراً.

الإشعاع.

«بدأ»، همس.

لم يقل أكثر. لم يكن الوقت مناسباً لإخافة الفريق. لكنه شعر بالحرارة الصغيرة تنتشر تحت سطح جسده ثم تختفي. تحذير أول.

على السطح، في غرفة العمليات، كانت نورا تتابع النقطة المضيئة على الشاشة.

«سرعتهم انخفضت قليلاً»، قالت.

سامح انحنى فوق الشاشة.

«طبيعي. التيار في هذه المنطقة قوي. سيستخدمون الجدران.»

أحد الأطباء المساعدين همس من خلفه:

«هل يشعرون بالألم كما نشعر؟»

سامح لم يجب. كان ينظر إلى المؤشرات. مستوى الإشعاع عند موضع الشظية لا يزال يرتفع ببطء ثابت.

مالو اتخذ قراره.

«نتقدم بمحاذاة الجدار. لا أحد يدخل وسط التيار.»

بدأوا الحركة. كان التقدم بطيئاً ومرهقاً. كل خطوة تحتاج إلى تثبيت السلك، ثم جذبه، ثم إعادة تثبيته من جديد. كريات الدم تمر فوقهم وتحتهم كقطعان هائلة لا تهدأ. أحياناً تصطدم واحدة كبيرة بجسد أحدهم فتدفعه بعيداً عن الجدار، فيسارع الآخرون لإنقاذه قبل أن ينجرف.

بعد ما بدا له دهراً، توقف مالو فجأة.

أمامهم مباشرة، كان الوريد يتفرع. فرع أضيق يتجه إلى الأعلى... نحو الرأس.

«هذا الطريق»، قال.

شعر بالوخزة مرة أخرى، أقوى قليلاً هذه المرة. الإشعاع يزداد كلما اقتربوا. جسده بدأ يرسل إشارات تحذير خافتة: إرهاق مبكر، ثقل في الأطراف.

نظر إلى رفاقه. كانوا صامتين، يركزون على كل حركة. لا أحد يشكو.

مالو أطلق السلك من جديد، وثبت نفسه على حافة التفرع.

خلفه، كان التيار لا يزال يعوي كأنه يرفض وجودهم. وأمامه، الطريق إلى العين يمتد ضيقاً ومجهولاً... ومشمّعاً بضوء غير مرئي يقتل ببطء.

أخذ نفساً عميقاً من الهواء المضغوط داخل قناعه الدقيق.

ثم دفع نفسه إلى الأمام، داخل الفرع الأصغر.

الرحلة الحقيقية كانت قد بدأت.

الفصل التاسع

الإشارة الضعيفة

كانت الإشارة الأولى واضحة.

على الشاشة الكبيرة في غرفة العمليات ظهرت كلمات مترجمة قصيرة:

«وصلنا إلى التفرع العلوي. التيار أضعف. نتقدم.»

نورا شعرت بشيء من الراحة يمر في صدرها. كتبت الملاحظة بسرعة على لوحتها، ثم رفعت عينيها إلى د. سامح الذي كان يقف ساكناً كأنما جزء من الأجهزة نفسها.

«ردوا عليهم»، قال سامح. «اطلبوا تقريراً عن مستوى الإشعاع الذي يشعرون به.»

أرسل الفني الرسالة. انتظروا.

عشر ثوانٍ. عشرون. ثلاثون.

لا شيء.

«أعد الإرسال»، قال سامح بهدوء.

أُعيدت الرسالة. هذه المرة انتظروا دقيقة كاملة. ثم ظهرت كلمات متقطعة على الشاشة:

«...إشعاع... أعلى... من... المتوقع... نستخدم... الدروع...»

ثم انقطعت.

نورا تقدمت خطوة نحو الشاشة كأنها تستطيع أن تجبر الإشارة على العودة.

«فقدنا الاتصال؟»

الفني هز رأسه بسرعة وهو يضغط على أزرار عدة في وقت واحد.

«الإشارة ضعيفة جداً. التداخل من الإشعاع نفسه على الأرجح. سأحاول تغيير التردد.»

في هذه الأثناء، داخل الوريد الصغير المتجه إلى الرأس، كان مالو يضغط على جهاز الاتصال للمرة الرابعة.

لا رد.

الضوضاء من حوله كانت هائلة. ليس صوت الدم فقط، بل شيء آخر... طنين خافت مستمر يملأ رأسه كلما اقترب أكثر من موضع الشظية. الإشعاع كان يتسلل حتى إلى الأجهزة.

«سيل، هل تسمعني؟» سأل عبر القناة الداخلية للفريق.

«نعم. الإشارة الخارجية انقطعت.»

«نواصل. لا ننتظر.»

كانوا يتحركون الآن ببطء أكبر. الجدار الداخلي للوعاء الدموي هنا أكثر خشونة، والأنسجة المحيطة تبدأ في إظهار علامات التضرر: بقع داكنة صغيرة، وتورم خفيف في بعض الأماكن. مالو شعر بالوخزات تزداد تكراراً. لم تعد وخزات متباعدة. صارت حرقاً خفيفاً مستمراً تحت سطح جسده.

على السطح، كان القلق ينتشر في الغرفة كالضباب.

أحد الأطباء المساعدين همس:

«إذا استمر الانقطاع أكثر من عشر دقائق...»

سامح قاطعه:

«لن نفعل شيئاً قبل خمس عشرة دقيقة. هم يعرفون ماذا يفعلون.»

لكن صوته لم يكن واثقاً تماماً كما أراد.

نورا وقفت بجانب شاشة التتبع. النقطة الصغيرة التي تمثل مالو كانت لا تزال تتحرك، لكنها بطيئة جداً الآن، وتقف أحياناً ثوانٍ طويلة قبل أن تتقدم مليمترات قليلة. شعرت أن قلبها ينبض في حلقها.

همست لنفسها:

«من فضلك... فقط أرسل شيئاً.»

كأنما استجاب لها أحد، ظهرت فجأة كلمات مكسورة على الشاشة:

«قريبون... الشظية... نراها...»

ثم انقطعت الإشارة تماماً هذه المرة.

ساد صمت مطبق في غرفة العمليات.

سامح أغلق عينيه للحظة، ثم فتحهما ونظر إلى الساعة.

«ابدأوا العد. عشر دقائق. إذا لم تعُد الإشارة... نتخذ قراراً.»

نورا لم تعد تدون ملاحظات. كانت تحدق في الشاشة الفارغة، ويدها اليمنى تضغط على حافة الطاولة حتى ابيضت مفاصلها.

في مكان ما تحت جلد كريم، كان مالو يرفع رأسه وينظر إلى الأمام.

هناك، على بعد مسافة قصيرة نسبياً، كانت هالة باهتة غير مرئية تملأ المكان بحرارتها القاتلة.

الشظية.

وكان الاتصال بالعالم الخارجي... قد انقطع.

الفصل العاشر

الكرية البيضاء

لم تكن الحركة في البداية واضحة.

مالو كان يركز على الهالة الباهتة أمامه، يقيس المسافة المتبقية إلى الشظية، عندما شعر سيل فجأة بجسده يُسحب إلى الخلف بعنف.

«شيء ما!» صرخ.

استدار مالو بسرعة. خلفهم مباشرة، كانت كتلة كبيرة شفافة تقريباً تقترب بسرعة غير معهودة في هذا التيار. أكبر من كرية الدم الحمراء بكثير، وأشكالها تتغير وهي تتحرك... كأنها تبحث.

كرية دم بيضاء.

«دروع!» أمر مالو.

لكن الوقت كان ضيقاً.

الكرية لم تهاجم عشوائياً. اقتربت كأنها تشم وجودهم، ثم امتدت منها زوائد رفيعة وسريعة. إحدى الزوائد التفّت حول ساق أحد أفراد الفريق قبل أن يتمكن من الانفلات. الآخرون سحبوه بقوة، لكن الكرية جذبتهم معها مسافة قصيرة نحو وسط التيار.

مالو أطلق سلك التثبيت وربطه بالجدار، ثم سحب نفسه بسرعة نحو الفريق.

«لا تدعوها تبتلع أحداً!»

كانت الزوائد تزداد عدداً. الكرية البيضاء بدأت تطوقهم كأنها تدرك أنهم أجسام غريبة يجب القضاء عليها. أحد الزوائد لمس ظهر مالو. شعر بحرارة خفيفة ثم لسعة حارقة. جهاز المناعة لا يرحم.

أخرج مالو الخطاف النانوي من حزامه. للمرة الأولى منذ دخولهم يستخدم أداة هجومية. أطلق الخطاف باتجاه أقرب زائدة وشدّه بقوة. الزائدة تمزقت جزئياً وانسحبت، لكن الكرية لم تتراجع. بالعكس، اندفعت أقرب.

«سيل... الآن!»

سيل أطلق سلكاً رفيعاً جداً ملفوفاً بمادة مزلقة خاصة. السلك التف حول جزء من جسم الكرية وسحبها للحظة بعيداً عن الجدار. في تلك اللحظة استغل مالو الفرصة. اقترب بسرعة، وثبت طرف أداة دقيقة على سطح الكرية، وأطلق نبضة كهربائية خفيفة جداً محسوبة.

الكرية ارتجفت. الزوائد ارتخت للحظة.

«انسحبوا إلى الجدار! بسرعة!»

انجذب الثلاثة إلى الحافة وهم يسحبون زميلهم المصاب. مالو بقي في المؤخرة حتى تأكد أن الجميع ثبتوا أنفسهم. الكرية كانت لا تزال قريبة، تدور حول نفسها في التيار كأنها تبحث عن مصدر الألم، لكنها لم تندفع خلفهم فوراً.

مالو شعر بألمه الخاص الآن. مكان اللمس على ظهره يحرق، وجسده يرسل إشارات إرهاق حادة. الإشعاع من الأمام، وجهاز المناعة من الخلف.

«هل هي وحيدة؟» سأل وهو يلهث بصوت خافت.

سيل نظر إلى التيار المحيط.

«أرى اثنتين أخريين من بعيد... تقتربان.»

مالو أغلق عينيه لجزء من الثانية.

كانوا لا يزالون بعيدين عن الشظية. والجسد الذي دخلوه بدأ يلاحظ وجودهم.

«نتحرك الآن. قبل أن تصل الأخريات.»

ثبتوا أسلاكهم من جديد وبدأوا التقدم السريع بمحاذاة الجدار. خلفهم، كانت الكرية البيضاء لا تزال تدور في مكانها، والزوائد تبحث في الفراغ.

على السطح، في غرفة العمليات، ظهرت فجأة إشارة قصيرة ومتقطعة على الشاشة:

«هجوم مناعي... تعاملنا... نواصل.»

ثم اختفت.

نورا أمسكت بحافة الطاولة.

سامح نظر إلى المؤشرات طويلاً قبل أن يقول بصوت منخفض:

«لقد بدأ الجسد يقاوم.»

في الأسفل، كان مالو يضغط على جرحه الصغير وهو يتقدم نحو الهالة المتوهجة.

المعركة الأولى انتهت.

لكن الجسد... كان قد استيقظ.

الفصل الحادي عشر

الاقتراب

كلما تقدموا، صار العالم حولهم أضيق وأكثر عدائية.

الوعاء الدموي الذي يسلكون جداره لم يعد يشبه النهر الذي دخلوه في البداية. صار قناة متعرجة، جدرانها متورمة في أماكن ومتآكلة في أماكن أخرى. البقع الداكنة ازدادت كثافة، وبعض الأنسجة بدت كأنها محروقة من الداخل. مالو لم يعد يحتاج إلى أجهزة لقياس الإشعاع. جسده كان يقيسه نيابة عنه.

الحرارة الآن مستمرة. ليست وخزات متفرقة، بل حرق ثابت يلتصق بالجلد ويحاول التسلل إلى العمق. كل حركة تكلفه جهداً مضاعفاً. نظر إلى رفاقه. سيل كان يتحرك بصعوبة أوضح، وأحد الآخرين يتوقف كل بضعة أمتار ليلتقط أنفاسه داخل قناعه.

«نصل إلى المنطقة الحرجة خلال دقائق»، قال مالو. «من الآن فصاعداً... لا أحد يزيل درعه حتى لو اختنق.»

رفع رأسه.

هناك، أمامهم مباشرة، كانت الهالة قد صارت مرئية تقريباً. ليس ضوءاً حقيقياً، بل تشويش في الهواء نفسه، كأن المكان يرتجف. خلف هذا التشويش كانت الشظية. صغيرة جداً، لكنها تبدو في عينيه كشمس سوداء تطلق موتاً صامتاً.

اقترب أكثر. رأى الأنسجة المحيطة بالعصب البصري. التضرر كان أعمق مما أظهرت الصور الخارجية. بعض الألياف العصبية بدت باهتة ومنكمشة، والدم في الأوعية الدقيقة حولها يسير ببطء غير طبيعي.

«الضرر أكبر»، همس. «إذا لم نخرجها الآن... لن يبقى شيء لننقذه.»

على السطح، كانت الغرفة قد انقسمت بصمت.

د. هشام، الطبيب المساعد، وقف أمام سامح مباشرة.

«الإشارة انقطعت أكثر من مرة. آخر رسالة كانت عن هجوم مناعي. مستوى الإشعاع عندهم تجاوز الحد الآمن منذ سبع دقائق. يجب سحبهم.»

سامح لم يرفع عينيه عن الشاشة.

«وماذا بعد السحب؟ نترك الشظية مكانها؟»

«نحاول طريقة أخرى. أو... نقبل الخسارة الجزئية.»

نورا التفتت بعنف.

«خسارة جزئية تعني عين الرجل. وربما أكثر.»

هشام نظر إليها ببرود.

«وخسارة الفريق الفيجاوي تعني أزمة دبلوماسية، وتحقيقات، وربما إغلاق البرنامج كله. هل فكرتِ في هذا؟»

سامح رفع يده بهدوء، فأوقف الكلام.

«مالو لم يطلب الانسحاب. والنقطة على الشاشة لا تزال تتحرك نحو الهدف. نحن لا نسحب فريقاً لم يطلب النجدة.»

«وأنت مستعد أن تتحمل موتهم داخل جسد مريض؟»

سامح نظر إليه أخيراً. كانت عيناه باردتين.

«أنا مستعد أن أتحمل مسؤولية إنقاذ من يمكن إنقاذه. وأنت إن لم تستطع الوقوف هنا بهدوء... اخرج.»

هشام تراجع خطوة، لكنه لم يخرج. اكتفى بالوقوف في الخلف ذراعيه متقاطعتين.

نورا عادت إلى الشاشة. النقطة الصغيرة كانت الآن شبه متوقفة عند حافة المنطقة المضيئة بالإشعاع. شعرت أن رئتيها ترفضان العمل بشكل طبيعي.

همست كأنها تحدث مالو عبر الشاشة:

«فقط... اقترب بحذر.»

داخل الجسد، توقف مالو تماماً.

كان على بعد مسافة قصيرة جداً من الشظية. يستطيع أن يرى شكلها غير المنتظم، والحواف الحادة التي تطلق الإشعاع في كل اتجاه. الحرارة هنا صارت ملموسة كجدار. أي خطأ في التقدير يعني أن الدروع لن تصمد طويلاً.

التفت إلى فريقه.

«من هذه النقطة... أدخل أنا فقط. أنتم تبقون هنا كنقطة ارتكاز واتصال. إذا سقطت الإشارة تماماً لأكثر من ثلاث دقائق... تسحبون أنفسكم فوراً.»

سيل حاول الاعتراض:

«هذا ليس البروتوكول...»

«هذا هو قراري.»

مالو ثبت السلك الأخير، وفحص أدواته واحداً واحداً: الخطاف الرئيسي، البكرات، الأسطوانة المضادة للإشعاع. ثم رفع رأسه ونظر إلى الهالة المتوهجة أمامه.

خلفه فريقه.

أمامه شظية تقتل ببطء.

وفوقه، في عالم أكبر بكثير، بشر يتجادلون حول ما إذا كان يجب أن يموت هنا أم لا.

دفع نفسه إلى الأمام، ودخل المنطقة المحروقة.

الفصل الثاني عشر

الهالة النارية

عندما تجاوز مالو الخط الأخير، اختفى العالم الذي يعرفه.

لم يعد هناك تيار دم واضح، ولا جدران وعاء دموي يمكن التشبث بها بسهولة. المكان هنا كان مشوهاً. الأنسجة من حوله بدت باهتة ومترهلة، وبعضها متفحم من الداخل. الهواء نفسه — أو ما يعادل الهواء في هذا السائل الكثيف — كان يهتز. وكل اهتزازة كانت تترجم داخل جسده إلى ألم.

الشظية كانت أمامه مباشرة.

أصغر مما تخيل، وأفظع. قطعة غير منتظمة الحواف، تتوهج بضوء لا يُرى بالعين لكنه يُحسّ بالجلد والعظم والذاكرة. بدت له كشمس صغيرة سوداء، تطلق حرارتها القاتلة في كل اتجاه دون صوت.

اقترب خطوة.

الألم انقضّ عليه فوراً.

كأن آلاف الإبر الساخنة غرزت نفسها في كل جزء من جسده دفعة واحدة. الدرع الواقي كان يصدر صوت تنبيه حاداً داخل خوذته، لكنه لم يتوقف. تراجع خطوة إلى الوراء، يتنفس بصعوبة، ثم تقدم من جديد.

«أنت هنا الآن»، همس لنفسه. «لا تهرب.»

مدّ طرفه وأطلق السلك الأول، ثبّته على نسيج متضرر قرب الشظية. السلك ارتجف كأنما يرفض البقاء. جذبه بقوة وثبت نفسه. الآن صار على مسافة تسمح له بالعمل... إذا صمد جسده.

الألم كان يتسلل إلى رأسه. ومع الألم جاءت الصور.

رين.

وجه صديقه القديم ظهر فجأة أمام عينيه كأنه واقعي. رين يبتسم تلك الابتسامة المتعبة قبل أن يدخل جسد الإنسان المصاب بالجلطة. رين يقول له: «إذا شعرت أن الحد تجاوزه... اخرج. لا تكن بطلاً.»

مالو أغمض عينيه بقوة.

«لست بطلاً»، تمتم. «أنا فقط... لم أعد أحتمل أن أعود فارغ اليدين.»

فتح عينيه. الشظية لا تزال هناك، تطلق موتها الصامت. شعر بجلده يحترق تحت الدرع. أحد أطرافه بدأ يرتعش لا إرادياً. تذكر لحظة خروجهم لرين... أو ما تبقى منه. الجسد الصغير المحروق، والعيون التي لم تعد ترى.

«لن يتكرر»، قال بصوت أعلى هذه المرة.

أخرج الخطاف الرئيسي. اليد التي تمسك به كانت تهتز. ثبّتها بالقوة، وصوّب نحو أقرب حافة للشظية. أطلق الخطاف. المعدن الدقيق ارتطم بالحافة وانزلق. الشظية لم تتحرك.

الألم ازداد.

شعر كأن شيئاً ما يأكل أطرافه من الداخل. الذكريات صارت أوضح: صوت رين وهو يصرخ عبر الاتصال قبل أن ينقطع، ثم الصمت الطويل بعده. مالو كان في ذلك اليوم خارج الجسد، يراقب، لا يستطيع فعل شيء.

الآن هو في الداخل.

الآن هو من يُحترق.

ثبّت قدميه، وأعاد المحاولة. هذه المرة نجح الخطاف في الإمساك بحافة رفيعة. شدّ ببطء. الشظية تحركت مليمترات قليلة ثم استقرت من جديد، كأنها متجذرة في الأنسجة.

الحرارة صارت لا تُحتمل.

مالو صرخ داخل خوذته صرخة مكتومة. جسده كان يرسل إشارات انهيار. الدرع ينذر بالفشل خلال دقائق. لكنه لم يفلت الخطاف.

في مكان ما بعيد جداً فوقه، كانت نورا تحدق في شاشة فارغة، وسامح يرفض اتخاذ قرار الانسحاب، وسعاد تمسك يد ابنتها في غرفة الانتظار.

أما هو... فكان وحيداً أمام شمس صغيرة تقتله ببطء.

شدّ الخطاف مرة أخرى، بكل ما تبقى له من قوة.

الشظية تحركت.

الفصل الثالث عشر

الالتقاط

الخطاف الأول أمسك، لكنه لم يكن كافياً.

مالو شدّ بكل ما تبقى له من قوة في ذراعه اليمنى. الشظية تحركت مليمترين، ثم توقفت كأنها جزء من العظم نفسه. الألم انفجر في جسده موجة جديدة، أقوى من كل ما سبق. الدرع الواقي بدأ يطلق صفيراً متصلاً داخل الخوذة، تحذيراً أحمر اللون يملأ رؤيته.

«ليس هكذا»، تمتم بصعوبة.

أفلت الخطاف جزئياً، وأعاد تثبيته على حافة أخرى أكثر بروزاً. هذه المرة سحب بزاوية مختلفة. الشظية مالت قليلاً، وكشفت عن جزء كان مغروساً في نسيج متضرر. لكنه لم يخرج.

الحرارة كانت تلتهمه حياً.

شعر أن أطرافه السفلية بدأت تخدر. الحركة صارت أثقل. في لحظة قصيرة، تداخلت الرؤية أمامه. رأى رين من جديد، ليس كذكرى هذه المرة، بل كأنه يقف على الجانب الآخر من الشظية ينظر إليه في صمت.

«اخرج...»، بدا أن الصوت يقول.

مالو هز رأسه بعنف.

«لا.»

مدّ طرفه الآخر وأطلق السلك الثاني. ثبّته على الجانب المقابل من الشظية. الآن صار لديه نقطتا ارتكاز. أخرج البكرة الميكانيكية الصغيرة من حزامه الخلفي. الأداة التي تدرب عليها مئات المرات في المحاكاة، والتي لم يستخدمها من قبل في عملية حقيقية بهذا المستوى من الإشعاع.

ثبت البكرة على السلكين، وبدأ يديرها ببطء.

في البداية لم يحدث شيء. ثم تحركت الشظية.

مليمتراً. ثم آخر. الأنسجة المحيطة تمزقت تمزقاً دقيقاً وهي تتخلى عنها. مالو شعر بمقاومة هائلة، كأنه يحاول اقتلاع جذر شجرة معدنية من صخرة. كل دورة للبكرة كانت تكلفه دفعة جديدة من الألم. الصفير داخل خوذته صار صراخاً.

«اقتربت...»، همس.

فجأة انفلت أحد السلكين.

الشظية ارتدت إلى مكانها، والسلك المشدود ارتدّ بقوة فضربه في جنبه. دار حول نفسه وفقد توازنه للحظة. التيار الضعيف هنا دفعه بعيداً عدة سنتيمترات قبل أن يتمكن من تثبيت نفسه من جديد.

كاد يفقد الوعي.

الظلام تجمع على أطراف رؤيته. الألم صار بعيداً لحظة، كأنه يحدث لشخص آخر. تذكر صوت سيل من الخلف، بعيداً عند نقطة الارتكاز: «مالو؟ إشارة قلبك تنخفض!»

لكن الصوت كان يأتي من عالم آخر.

عضّ على أسنانه داخل القناع — أو ما يعادل الأسنان لديهم — وأجبر نفسه على العودة. التنفس. تثبيت. إعادة السلك. البكرة من جديد.

هذه المرة لم يعتمد على القوة وحدها. استخدم الوزن القليل المتبقي له، وزاوية السحب، والصبر الذي تعلمه بعد موت رين. دورة... ثم انتظار... ثم دورة أخرى.

الشظية بدأت تخرج.

أولاً الحافة الحادة، ثم الجسم غير المنتظم. الأنسجة أفلتتها أخيراً بمقاومة أخيرة يائسة. مالو شدّ البكرة حتى النهاية. الشظية تحررت تماماً وعلقت في الهواء الكثيف بين السلكين، لا تزال تتوهج بموتها الصامت.

نجح.

لكن ثمن النجاح كان باهظاً.

مالو كان يرتجف بعنف. الدرع ينذر بالانهيار الكامل خلال أقل من دقيقة. إحدى عينيه بالكاد ترى. شعر أن جسده يتفكك من الداخل قطعة قطعة.

مدّ يده بصعوبة، وثبت الشظية داخل الأسطوانة الخاصة المضادة للإشعاع. أغلق الغطاء. الضوء القاتل اختُزن أخيراً.

ثم استند إلى الجدار المتضرر، يتنفس كأنه يغرق.

من بعيد، جاء صوت سيل مكسوراً عبر الاتصال الداخلي:

«مالو... هل أنت...؟»

لم يستطع الإجابة فوراً. رفع رأسه بصعوبة ونظر إلى الاتجاه الذي جاءوا منه.

الطريق لا يزال طويلاً.

والخروج... قد يكون أصعب من الالتقاط نفسه.

الفصل الرابع عشر

الطريق الأقصر

مالو لم يكن قادراً على العودة من الطريق الذي جاء منه.

عرف ذلك وهو لا يزال مستنداً إلى الجدار المتضرر، الشظية محكمة الإغلاق داخل أسطوانتها، وجسده يرتجف كأنه على وشك الانهيار. الطريق الطويل الذي سلكوه كان

سيستغرق وقتاً هو لا يملكه. الدرع كان ينذر بالفشل الكامل، والإشعاع المتراكم في أنسجته بدأ يؤثر على توازنه وقدرته على التركيز.

رفع رأسه ونظر إلى الأعلى.

هناك، عبر طبقات الأنسجة، كان الجلد قريباً نسبياً. أقصر بكثير. لكنه لم يكن طريقاً ممهداً. سيكون عليه أن يشق طريقه عبر أنسجة متضررة وملتهبة، وأن يخاطر بكل شيء.

«سيل»، قال بصوت خافت مكسور عبر الاتصال الداخلي. «اسمعوني جيداً. لن أعود من الطريق القديم. سأشق طريقاً مباشراً إلى السطح. أنتم... ارجعوا الآن. لا تنتظروني.»

صوت سيل جاء محتجاً فوراً:

«هذا انتحار. البروتوكول...»

«البروتوكول لن ينقذ العين إذا مت هنا وأسقطت الشظية. ارجعوا. هذا أمر.»

قطع الاتصال قبل أن يسمع الرد. لم يعد يحتمل نقاشاً.

بدأ الصعود.

استخدم الخطاف والسكينة النانوية الدقيقة. كل شق كان جهداً هائلاً. الأنسجة هنا ملتصقة ومتورمة، وبعضها ينزف سائلاً كثيفاً يعيق الرؤية. كلما تقدم، ازداد الالتهاب حوله كأنه الجسد نفسه يرفض خروجه بهذه الطريقة.

فجأة، انقبض كل شيء من حوله.

التهاب مفاجئ وحاد. الأنسجة انتفخت بقوة، والضغط عليه ازداد كأن المكان يحاول سحقه. مالو صرخ داخلياً وهو يثبت نفسه. السائل الكثيف حوله صار أكثر سخونة ولزوجة. شعر أن الشظية داخل أسطوانتها تهتز مع كل نبضة ألم جديدة.

«ليس الآن...»

شق طريقه بعنف أكبر. لم يعد يهتم بالدقة المثالية. كل ما يهمه أن يصل إلى الطبقات الخارجية قبل أن يفقد الوعي تماماً. الدرع كان يطلق تحذيراً مستمراً أحمر اللون. الرؤية في عينه اليسرى اختفت تقريباً. اليمنى لا تزال تعمل... بالكاد.

تذكر للحظة وجه نورا وهي تنظر إليه عبر الزجاج قبل الحقن. وتذكر سعاد ومريم في غرفة الانتظار، رغم أنه لم يرهما قط. وتذكر رين.

«هذه المرة... سأخرج»، همس.

اندفع إلى الأمام بقوة أخيرة. السكينة النانوية شقت الطبقة الأخيرة من الأنسجة الحية. ثم شعر بتغيير مفاجئ في الضغط والحرارة.

كان قد وصل إلى ما تحت الجلد مباشرة.

فوقه مباشرة، على بعد مليمترات قليلة، كان العالم الخارجي. الضوء. الهواء. النجاة.

لكن جسده كان قد وصل إلى حدّه الأخير.

ثبت الأسطوانة التي تحتوي الشظية أمامه، ودفعها نحو السطح بكل ما تبقى له من قوة. ثم استند إلى الخلف، يتنفس بصعوبة، وهو يشعر بالظلام يتسلل من أطراف رؤيته.

في غرفة العمليات، صاحت نورا فجأة:

«حركة! تحت الجلد مباشرة... شيء ما يدفع!»

سامح انحنى فوق موضع العين بسرعة.

«استعدوا. هو يحاول الخروج من الطريق القصير.»

الأطباء تحركوا كخلية نحل. أدوات، عدسات مكبرة، حاويات خاصة مضادة للإشعاع.

تحت الجلد مباشرة، كان مالو يدفع الأسطوانة للمرة الأخيرة. شعر بها تخترق الطبقة الأخيرة وتصل إلى الهواء الخارجي.

نجح.

ثم ترك نفسه ينزلق إلى الخلف، والظلام يبتلع كل شيء.

الفصل الخامس عشر

الخروج

في البداية لم يرَ أحد شيئاً.

ثم تحركت نقطة صغيرة تحت جلد كريم، فوق موضع العين اليمنى مباشرة. تحركت مرة... ثم مرة أخرى بقوة أوضح. الجلد انتفخ انتفاخاً ضئيلاً جداً، وخرج شيء لامع دقيق.

«هناك!» صاحت نورا.

سامح كان الأقرب. انحنى بسرعة، وعدسة مكبرة في إحدى يديه وأداة دقيقة جداً في اليد الأخرى. الفنيون تحركوا حوله كظل واحد. لم يتكلم أحد. حتى أجهزة المراقبة بدت كأنها خفضت أصواتها.

أخرج سامح الأسطوانة الصغيرة بحذر شديد. كانت لا تزال مغلقة بإحكام، وتصدر حرارة خفيفة محسوسة حتى من خلال الأدوات. وضعها فوراً داخل الحاوية الرصاصية المعدة مسبقاً. أُغلق الغطاء بصفير صغير، وانقطع الإشعاع عن الغرفة.

صمت مطبق.

ثم همس أحد الأطباء، كأنه يخشى أن يكسر شيئاً هشاً:

«الشظية... خرجت.»

لم يصفق أحد في البداية. كان الارتياح أكبر من أن يُعبر عنه بصوت عالٍ. نورا غطت فمها بيدها، وعيناها ممتلئتان بالدموع التي رفضت أن تسقط. سامح ظلّ ينظر إلى الحاوية الرصاصية لحظة طويلة، ثم رفع رأسه نحو شاشة التتبع.

النقطة التي كانت تمثل مالو... اختفت.

«أين هو؟» سألت نورا بصوت مكسور. «أين مالو؟»

الفني ضغط على الأزرار بسرعة.

«آخر إشارة كانت تحت الجلد مباشرة... ثم انقطعت. لا حركة. لا نبض مقروء.»

سامح لم يتردد.

«افتحوا موضع الخروج. الآن. عدسات، أدوات دقيقة، وضوء مركّز. هو لا يزال هناك.»

بدأوا العمل على سطح الجلد. مليمتر بعد مليمتر. الأنسجة متورمة وملتهبة، والدم يتسرب بقطرات صغيرة. نورا كانت تمسك حافة الطاولة بقوة حتى آلمها ذلك.

ثم رآوه.

جسداً صغيراً شبه شفاف، ملتصقاً بالأنسجة من الداخل مباشرة تحت الفتحة. لا يتحرك. أحد أطرافه كان لا يزال ممدوداً كأنه يحاول التشبث بشيء.

«أخرجه»، قال سامح بهدوء حاد. «بحذر. هو حي حتى أثبت العكس.»

أخرجوه بأدوات أرق من الشعرة. وضعوه على المنصة الخاصة داخل حاوية العزل. الفنيون بدأوا فوراً إجراءات الإنعاش الفيجاوية الدقيقة: سوائل، نبضات كهربائية خفيفة محسوبة، تبريد موضعي.

ثوانٍ طويلة.

ثم تحركت إحدى الزوائد الصغيرة حركة ضعيفة جداً.

نورا أطلقت صوت شهقة مكتومة. أحد الفنيين قال بصوت مرتجف:

«نبض... ضعيف. لكنه موجود.»

عندها فقط سمح أحدهم لنفسه أن يتنفس بعمق. تصفيق مكتوم قصير انتشر في الغرفة ثم توقف بسرعة، كأن الجميع تذكروا أن العمل لم ينتهِ بعد.

سامح التفت إلى سرير كريم. الأجهزة لا تزال تعمل. النبض مستقر نسبياً، لكن العين اليمنى منتفخة ومغلقة، والمؤشرات العصبية غير واضحة بعد.

«المريض؟»

أحد الأطباء رفع رأسه من الشاشات.

«مستقر حالياً. لا نعرف بعد حجم الضرر الذي لحق بالعصب. الساعات القادمة ستحدد.»

سامح أومأ. ثم نظر إلى الحاوية التي يرقد فيها مالو.

الكائن الصغير كان لا يزال فاقداً للوعي، لكن صدره النحيل يرتفع وينخفض ببطء.

في غرفة الانتظار بالطابق الثالث، لم تكن سعاد ومريم تعرفان شيئاً بعد. كانت الأم تمسح شعر ابنتها النائمة، وتنظر إلى الباب المغلق كأنها تستطيع أن تجبره على أن يفتح حاملاً خبراً جيداً.

أما في غرفة العمليات، فقد انتهى الجزء المستحيل من المغامرة.

وبقي الجزء الأصعب: الانتظار.

الفصل السادس عشر

الثمن

مالو لم يفتح عينيه إلا بعد ساعة ونصف.

عندما عاد الوعي إليه، كان أول شيء يشعر به هو الألم. ليس الألم الحاد الذي رافقه عند الشظية، بل ألم عميق ومشتت، كأنه انتشر في كل خلية من خلاياه وتركها محترقة من الداخل. حاول أن يحرك طرفه الأيمن، فرفض الطرف أن يستجيب إلا برعشة ضعيفة.

كان داخل حاوية العزل الخاصة، مستلقياً على منصة ناعمة مضاءة بضوء أزرق خافت. حوله أجهزة فيجاوية صغيرة تراقب كل شيء: نبضه، مستوى الإشعاع المتبقي في جسده، وظائف أعضائه الدقيقة.

صوت مترجم جاء من الخارج، هادئ ومحسوب:

«مالو. لا تتحرك كثيراً. الدرع انهار جزئياً. تعرضت لجرعة أعلى مما هو مسموح.»

عرف الصوت. أحد الطبيبين الفيجاويين المرافقين للفريق.

حاول أن يتكلم. صوته خرج ضعيفاً ومكسوراً:

«الشظية...؟»

«في الحاوية الرصاصية. آمنة. المريض لا يزال مستقراً.»

مالو أغمض عينيه من جديد. شيء ما يشبه الارتياح مرّ في صدره، لكنه كان أضعف من أن يطرد الألم.

في غرفة العمليات، كان الفريق البشري يتعامل مع ما تبقى.

الموضع الذي خرجت منه الشظية لا يزال مفتوحاً جزئياً تحت العدسات. الأنسجة ملتهبة، وآثار الإشعاع واضحة على الخلايا المحيطة. سامح كان يشرف بنفسه على التنظيف الدقيق، بينما الفنيون يعالجون الأدوات والحاويات التي لامست الأسطوانة.

«أي شيء لمس الشظية أو الأسطوانة يُعامل كنفاية مشعة»، قال سامح بصوت حازم. «لا استثناءات.»

نورا لم تكن تساعد في ذلك. كانت واقفة أمام حاوية مالو منذ أن أخرجوه، لا تبعد عنها إلا حين يُطلب منها التنحي لحظة. كانت تنظر من خلال العدسة المكبرة الرئيسية، ترى جسده الصغير المحترق في أماكن، والارتعاشات الخفيفة التي تمر به من وقت لآخر.

عندما فتح مالو عينيه للمرة الثانية، كانت هي أول من رآه.

اقتربت أكثر من العدسة. صوته المترجم جاء ضعيفاً عبر السماعة:

«أنتِ... نورا.»

ابتسمت رغم القلق، ودمعة واحدة أفلتت منها دون إذن.

«نعم. أنا هنا.»

«هل... نجحت؟»

«نجحت. الشظية خارج تماماً. وأنت أيضاً خارج.»

مالو صمت ثانية. ثم قال بصوت أضعف:

«رين... لم يخرج.»

نورا لم تفهم الاسم في البداية، لكنها شعرت بثقله. وضعت يدها على حافة الحاوية، قريبة منه قدر ما يسمح الزجاج والحماية.

«أنت خرجت»، همست. «هذا يكفي الآن.»

مالو حاول أن يحرك رأسه نحوها. عيونه السوداوان الكبيرتان كانتا باهتتين، لكنهما تثبتان عليها.

«هل سأبصر من جديد... كما كنت؟»

السؤال لم يكن موجهاً لها تماماً، لكنه خرج على أي حال. أحد الطبيبين الفيجاويين أجاب بدلاً منها:

«سنعرف بعد ساعات. الراحة الآن أهم.»

نورا ظلت تنظر إليه. لم تجد كلمات كافية. كل ما استطاعت فعله هو أن تبقى هناك، عيناهما تلتقيان عبر العدسة والزجاج والمسافة الهائلة التي تفصل حجمين مختلفين... وعالمين مختلفين.

في الخلف، كان سامح يخلع قفازاته أخيراً وينظر إلى الساعة.

الجزء المستحيل انتهى.

لكن الثمن... كان لا يزال يُدفع.

الفصل السابع عشر

الصحوة

استيقظ كريم ببطء، كأنه يصعد من بئر عميق.

أول شيء أدركه هو الصوت. صوت منتظم لأجهزة المراقبة، وصوت أنفاس شخص قريب منه. ثم شعر بوزن خفيف على يده. أصابع سعاد.

حاول أن يفتح عينيه. اليسرى استجابت. اليمنى... لم تستجب.

الظلام في الجانب الأيمن كان كاملاً. ليس ظلمة نوم، بل غياب. كأنه أُغلق عليه باب إلى الأبد.

«كريم؟» صوت سعاد ارتجف. «كريم... هل تسمعني؟»

أدار رأسه قليلاً نحوها. صورتها ظهرت مشوشة في البداية، ثم اتضحت. عيناها محمرتان، ووجهها أنحف مما تذكره. خلفها كانت مريم واقفة، تمسك حافة السرير بكلتا يديها كأنها تخشى أن يسقط.

«نعم...»، قال بصوت أجش. «أسمعك.»

سعاد انحنت وألصقت جبينها بيده، وبدأت تبكي بصمت. مريم لم تبكِ. كانت تحدق في عين أبيها المغلقة، ثم في العين المفتوحة، كأنها تحاول أن تفهم ما الذي تغيّر بالضبط.

دخل د. سامح بعد دقائق. خلفه نورا تحمل ملفاً وتحاول أن تبدو مهنية أكثر مما تشعر.

«مرحباً بك من جديد»، قال سامح بهدوء. «العملية نجحت. الشظية أُخرجت بالكامل.»

كريم رفع يده اليمنى ببطء ولمس المنطقة حول عينه المغلقة. الضمادات كانت سميكة، والجلد تحتها يؤلمه لمساً خفيفاً.

«عيناي...؟»

سامح لم يتجمل.

«العين اليمنى تعرضت لضرر من الإشعاع ومن الالتهاب. لا نعرف بعد إن كنت ستستعيد جزءاً من البصر فيها أم لا. الأيام والأسابيع القادمة ستحدد. أما العين اليسرى فسليمة تماماً.»

كريم أغمض عينه السليمة لحظة. سعاد رفعت رأسها ونظرت إلى سامح كأنها تطلب منه أن يقول شيئاً أفضل.

«هل يعني هذا أنه...؟»

«يعني أننا أنقذنا حياته، وأنقذنا ما يمكن إنقاذه من بصره»، قال سامح. «هذا أكثر مما كان متاحاً قبل أيام.»

مريم تقدمت خطوة.

«والكائنات الصغيرة؟ الذي دخل... هل هو بخير؟»

نورا أجابت هذه المرة، صوتها أهدأ من المعتاد:

«مالو... يعاني من آثار الإشعاع. لكنه حي. ويتلقى العلاج.»

كريم نظر إلى سقف الغرفة طويلاً. كان يحاول أن يستوعب. قبل أيام كان رجلاً يرى العالم بعينين اثنتين، ويعمل في معهد نووي، ويضحك مع ابنته على أشياء تافهة. الآن هو رجل بعين واحدة عاملة، وشظية بلوتونيوم كانت على وشك أن تقتله، ومخلوق من كوكب آخر احترق من أجله تحت جلده.

سعاد أمسكت يده من جديد.

«مهم أنك هنا»، همست. «الباقي... نواجهه معاً.»

كريم ضغط على أصابعها بضعف.

في الخارج، كانت شمس الصباح تدخل من النافذة وتسقط على أرضية الغرفة. بدت له مختلفة قليلاً. كأنها تأتي من زاوية واحدة فقط.

نظر إلى ابنته، ثم إلى زوجته، ثم إلى الظلام الذي يملأ الجانب الأيمن من رؤيته.

النجاة لها ثمن.

وهو الآن يبدأ في دفعه.

الفصل الثامن عشر

الثمن السياسي

الخبر لم ينتظر حتى يستعيد كريم وعيه تماماً.

في صباح اليوم التالي لخروج الشظية، كانت الشاشات في كل مكان تكرر العنوان نفسه بصيغ مختلفة:

«كائن فضائي يُخرج شظية بلوتونيوم من عين عالم مصري»

«عملية فيجاوية مثيرة للجدل تنجح داخل مستشفى جامعي»

«هل سلّمنا أجسادنا للكائنات الفضائية؟»

بعض التقارير كانت مديحاً حذراً. معظمها كان مليئاً بالأسئلة والشكوك والصور المقتطعة من ملفات قديمة لمعاهدة ١٩٩٧. في البرامج الحوارية، ارتفعت الأصوات. نواب يتحدثون عن «السيادة على أجساد المواطنين»، وكتاب يحذرون من «الاعتماد

المتزايد على كائنات لا نعرف ولاءها الحقيقي»، وآخرون يطالبون بوقف البرنامج الطبي المشترك فوراً.

في مكتب الإدارة بالطابق السابع، كان د. سامح النجار يقف أمام نافذته للمرة الثانية خلال أيام، بينما تتوالى الاتصالات على الشاشة خلفه.

مدير المستشفى قال بصوت متعب:

«الوزارة تريد تقريراً مفصلاً قبل الظهيرة. والمخابرات العلمية طلبت نسخة من كل التسجيلات. وهناك نائب برلماني يهدد بفتح تحقيق.»

سامح لم يلتفت.

«التحقيق في ماذا؟ في أننا أنقذنا رجلاً من العمى والموت؟»

«في استخدام كائن خارجي دون انتظار الموافقة السياسية النهائية. يقولون إنك تجاوزت صلاحياتك.»

سامح أدار وجهه أخيراً. كانت علامات الإرهاق واضحة على وجهه، لكن عينيه لم تفقدا حدتهما.

«الموافقة الطبية كانت موجودة. والوقت لم يكن يسمح بانتظار لجان. إذا أرادوا رأسي... فليأخذوه بعد أن يستقر المريض.»

في هذه الأثناء، كان اسم «مالو» قد بدأ ينتشر.

في البداية كمجرد «الكائن الفيجاوي الذي نفذ العملية». ثم صار له وجه — أو ما يشبه الوجه — من الصور المكبرة التي سُرّبت. بعض الحسابات على شبكة التواصل جعلته بطلاً. أخرى جعلته رمزاً للخطر القادم. ظهرت رسوم ساخرة، ومقالات رأي حادة، وهاشتاجات متضاربة.

نورا كانت تتابع بعض ذلك خلسة على جهازها في الاستراحة. كلما رأت صورة مالو المأخوذة عبر العدسة، شعرت بغضب غريب. كانوا يتحدثون عنه كرمز أو كتهديد، لا ككائن احترق من الداخل لينقذ رجلاً لم يكن يعرفه.

دخلت على سامح دون موعد.

«هل سنتركهم يفعلون هذا به؟» قالت. «هو لا يزال في العزل، يعاني، وهم يحولونه إلى مادة إعلامية.»

سامح نظر إليها طويلاً.

«نحن لا نتحكم في الإعلام. ولا في البرلمان. ما نتحكم فيه هو أن نكمل علاجه، وأن نحمي المريض من الضجيج. هذا كل ما نستطيعه الآن.»

في غرفة العزل بالطابق السفلي، كان مالو مستلقياً في حاويته، يتلقى جرعات العلاج المضاد للإشعاع. لم يكن يعرف بعد حجم العاصفة التي تدور باسمه في العالم الخارجي. كان يشعر بالألم، وبالتعب، وبشيء آخر جديد: فضول غريب تجاه هؤلاء البشر الذين يتجادلون حوله بينما هو لم يخرج بعد من ظله.

أحد الفنيين الفيجاويين دخل وأبلغه باختصار:

«اسمك أصبح معروفاً هناك. بعضهم يمدحك. كثيرون يخافونك.»

مالو أغمض عينيه.

«الخوف أسهل من الشكر»، همس.

ثم أضاف بعد لحظة:

«هل المريض يرى؟»

«ليس بعد. لكنهم يقولون إنه واعٍ.»

مالو أومأ برأسه الصغير ببطء.

في الطابق الثالث، كان كريم يسمع أصوات التلفاز الخافتة من الغرفة المجاورة رغم محاولات سعاد إغلاق الباب. التقط كلمات: «فيجا»، «مخاطر»، «تحقيق».

نظر إلى الظلام الذي يملأ جانب رؤيته الأيمن، ثم أمسك يد زوجته.

«يبدو»، قال بصوت هادئ مرير، «أن إنقاذي فتح باباً أكبر مما توقعت.»

سعاد لم تجب. فقط ضغطت على يده أقوى.

خارج المستشفى، كانت العاصفة السياسية والإعلامية لا تزال في بدايتها.

والثمن الحقيقي... لم يُحسب بعد بالكامل.

الفصل التاسع عشر

حوار بين عالمين

بعد ثلاثة أيام من العملية، سُمح لمالو أن يستقبل زائرين بشريين للمرة الأولى.

نُقلت حاويته إلى غرفة صغيرة معقمة في الطابق السفلي، حيث يمكن للزائر أن يجلس أمام العدسة المكبرة الرئيسية ويتحدث عبر نظام الترجمة المباشرة. كان جسده لا يزال ضعيفاً، والبقع المحترقة على أطرافه واضحة تحت الضوء الأزرق الخافت، لكنه كان قادراً على الجلوس مستنداً إلى مسند صغير.

دخل د. سامح أولاً. جلس على الكرسي المخصص، وخلع نظارته لحظة ثم أعادها. نظر إلى مالو طويلاً قبل أن يتكلم.

«لو مت هناك»، قال ببساطة، «لكانوا أغلقوا البرنامج كله.»

مالو أمال رأسه الصغير.

«ولو تركت الشظية، لكان الرجل فقد عينه ثم حياته. أيهما أسوأ في حساباتكم؟»

سامح لم يجب فوراً. بدا كأنه يزن الكلمات.

«الحسابات معقدة. أنتم تنقذوننا، ونحن نحتاجكم. لكن كل مرة تدخلون فيها أجسادنا، يزداد الخوف في الخارج. الناس لا يحبون أن يعتمدوا على من لا يشبهونهم.»

مالو حرك أحد أطرافه ببطء.

«ونحن أيضاً لا نحب أن نموت داخل أجسادكم. رين مات هكذا. صديقي. الجهاز المناعي لإنسان ابتلعه قبل أن نتمكن من سحبه. منذ ذلك اليوم وأنا أحمل هذا الدين.»

سامح صمت. الغرفة بدت أصغر فجأة.

«لهذا قبلت المهمة»، قال مالو. «ليس فقط لإنقاذ كريم. بل لأثبت لنفسي أن ما حدث لرين لن يتكرر إن كنت أنا من يدخل.»

«وهل أثبتّ؟»

مالو نظر إلى بقاياه المحترقة.

«أثبتّ أن الثمن دائماً موجود. وأن النجاة... لا تعني أنك لم تخسر شيئاً.»

دخلت نورا في هذه اللحظة. توقفت عند الباب حين رأت الاثنين، ثم تقدمت ببطء عندما أومأ لها سامح. جلست إلى جانبه، أقرب إلى العدسة.

مالو التفت إليها.

«أنتِ بقيتِ عند الحاوية ساعات طويلة بعد أن أخرجوني. رأيتكِ.»

نورا شعرت بالحرارة تصعد إلى وجهها.

«لم أكن أستطيع أن أتركك وحدك.»

«لماذا؟ أنا لست من عالمك.»

«لأنك كنت تتألم. ولأنك أنقذت رجلاً من عالمي.»

ساد صمت قصير. سامح نظر إلى الاثنين، ثم قال بهدوء:

«السؤال الذي يطرحه الجميع الآن: إلى أين نمضي من هنا؟ هل نزداد اعتماداً على بعضنا، أم نبدأ في الابتعاد؟»

مالو أجاب هذه المرة ببطء، كأنه يختار كل كلمة:

«الاعتماد ليس ضعفاً إذا كان متبادلاً. نحن نحتاج تقنياتكم في الطاقة والمواد أكثر مما تظنون. وأنتم تحتاجون أيدينا الصغيرة في الأماكن التي لا تصل إليها أيديكم. المشكلة ليست في الاعتماد. المشكلة في الكرامة. كيف ننظر إلى بعضنا ونحن نفعل ذلك.»

نورا همست:

«كثيرون في الخارج لا يرونكم كشركاء. يرونكم كأدوات... أو كتهديد.»

«وكثيرون عندنا»، قال مالو، «يرونكم كعمالقة خطرين، أجسادهم تبتلعنا إذا أخطأنا. الخوف متبادل. لكنه لا يمنعنا من المجيء عندما تطلبون.»

سامح أسند مرفقيه إلى ركبتيه وانحنى أقرب إلى العدسة.

«لو طلبنا منك أن تعود في مهمة أخرى بعد أن تتعافى... هل تعود؟»

مالو صمت وقتاً أطول هذه المرة. نظر إلى نورا، ثم إلى سامح، ثم إلى يديه الصغيرتين المحترقتين.

«إذا كان هناك من يمكن إنقاذه»، قال أخيراً، «فسأعود. لكن ليس كأداة. وكشريك يعرف ثمن ما يفعل.»

نورا ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة.

«إذن نحن متفقون على شيء واحد على الأقل.»

مالو حرك رأسه بما يشبه الإيماءة.

«على أن الثمن موجود... وأننا ندفعه معاً.»

خارج الغرفة الصغيرة، كانت العاصفة السياسية لا تزال مستمرة. لكن داخلها، بين رجلين من حجمين مختلفين وطالبة تجلس بينهما، كان حوار آخر يولد بهدوء: حوار لا يتحدث عن السيادة أو الخوف، بل عن إمكانية أن يعيش عالمان جنباً إلى جنب... دون أن يبتلع أحدهما الآخر.

الفصل العشرون

الرحيل والبداية

بعد أسبوعين من العملية، حان وقت الرحيل.

كان جسد مالو قد استعاد جزءاً من قوته، لكن آثار الحروق الإشعاعية ظلت ظاهرة على أطرافه كعلامات دائمة. الحاوية الخاصة به نُقلت إلى غرفة الإقلاع المخصصة في الطابق السفلي، حيث تنتظر المركبة الصغيرة التي ستعيده وفريقه إلى المحطة المدارية، ومنها إلى فيجا.

قبل النقل النهائي، طُلب منه إن كان يرغب في وداع أحد. طلب أن يرى كريم، ثم نورا، ثم سامح.

دخلوا واحداً بعد الآخر.

كريم جاء أولاً، متكئاً على ذراع سعاد، وضمادة لا تزال تغطي عينه اليمنى. وقف أمام العدسة طويلاً دون كلام. ثم قال بصوت منخفض:

«قالوا لي إنك كدت تموت داخلي.»

مالو نظر إليه من خلف الزجاج.

«وأنت كدت تموت بسبب شيء أصغر من ظفرك. نحن متساويان في هذا.»

كريم مدّ يده كأنه يريد أن يلمس الحاوية، ثم توقف.

«إذا استعدت شيئاً من البصر في هذه العين... فسأعرف أن ذلك بفضلك. وإذا لم أستعد... فسأعرف أنك حاولت أكثر مما كان يجب.»

مالو أومأ برأسه الصغير.

« suffices.»

ثم جاء دور نورا. كانت تحمل شيئاً صغيراً في يدها: شريحة ذاكرة رفيعة.

«وضعت فيها كل التسجيلات التي سُمح لي بنسخها من العملية»، قالت. «وتقريرين طبيين عن حالتك بعد الخروج. ربما تفيدكم في فيجا.»

مالو نظر إلى الشريحة، ثم إليها.

«أنتِ راقبتِ حتى النهاية. معظمهم لا يفعلون.»

«لأن معظمهم يخافون. أنا... أصبحت أقل خوفاً.»

صمتت لحظة، ثم أضافت بصوت أخفت:

«إذا عدت يوماً... أريد أن أكون ضمن الفريق الطبي المستقبِل.»

مالو حرك طرفه بما يشبه ابتسامة صغيرة.

«إذن سأعود.»

أخيراً دخل سامح. لم يطل الكلام.

«التحقيق السياسي سيستمر أشهراً. بعضهم يريد إيقافي. بعضهم يريد إيقاف البرنامج كله.»

«وهل سيتوقف؟» سأل مالو.

سامح هز رأسه.

«لا. لأن رجلاً مثل كريم سيموت في المرة القادمة إذا توقف. ولأننا نحتاجكم... كما تحتاجوننا.»

مدّ يده إلى العدسة، ووضع أصابعه عليها لحظة.

«إلى اللقاء، شريك.»

مالو وضع طرفه على الجانب الآخر من الزجاج.

«إلى اللقاء.»

بعد ساعة، كانت الحاوية قد أُغلقت وأُدمجت في مركبة النقل. نورا وقفت في غرفة المراقبة تنظر إلى الشاشة حتى اختفت المركبة من المدى. سامح وقف إلى جانبها في صمت.

في الطابق الثالث، كان كريم يجلس على سريره بجانب النافذة. الضمادة لا تزال مكانها، لكن الضوء يدخل من العين اليسرى قوياً وواضحاً. سعاد تصلح وسادته، ومريم تقرأ له أخباراً من جهازها بصوت هادئ... متجاوزة كل ما يتعلق بالجدل السياسي.

كريم نظر إلى السماء من النافذة.

في مكان ما هناك، كان كائن صغير بحجم كرية دم يغادر الأرض بعد أن ترك داخلها أثراً لا يُمحى.

ابتسم نصف ابتسامة.

«يبدو»، همس لنفسه، «أن المغامرة لم تنتهِ بعد.»

ثم أغلق عينه السليمة، وبدأ رحلة التعافي الطويلة... بينما في الأعلى، كانت مركبة صغيرة جداً تشق طريقها نحو النجوم، حاملة معها إمكانية عودة أخرى، ويوماً جديداً، وعالماً لم يعد منفصلاً تماماً عن عالم آخر.